معروف أن «تفسير القرآن»؛ هـو محاولـة لفهم كلام اللـه العزيـز العليم، وتدبُّر الخطاب الربَّاني، ومن هنا تنوعت مدارس التفسـير، وكلهـا شـاهدة على إعجاز القرآن. فمنها: التفسير بالمأثور، والتفسير بـالرأي، والتفسـير العلمي، والتفســير الموضــوعي، وغيرهــا. وليس هنــاك تضــاد بين هــذه المدارس، بل إنها تتكامل في الرؤية والفهم المستنير.

هـذا؛ ويعـد التفسـير الموضـوعي أحـد ألـوان التفسـير البديعـة؛ إذ يهتم بالوقوف على مقاصد السور، وما تدل عليه معان تحقق مراد اللـه تعـالى من كلامه، وذلك بـالنظر في فـواتح السـورة وخواتيمهـا، وسـياق وسـباق آياتها ولحاقهـا، وألفاظهـا، ويتمـيز هـذا التفسـير بـإيراد المبـادئ والوصـايا والأحكام التي تشتمل عليها كل سورة على حدة.

تتجلى براعــة أصــحاب التفســير الموضــوعي في القــدرة على التأمــل الشـامل لفحـوى السـورة القرآنيـة، والفهم العميـق لأهـدافها ومراميهـا. فالمتأمل في سور الكتاب العزيـز، والمتـدبِّر في موضـوعاته بمـا تضـمنته من أحكام وأخبار ووصايا، يجد أنه اهتم بمقاصد هذا الدين عامــة، وكلياتــه الأساسية، ولم يُعرِّج على تفاصيل الأحكام إلا في مواضع قليلــة ومــواطن محـددة؛ ذلـك أنَّ القـرآن كتـاب كـل زمـان ومكـان - الماضـي والحاضـر والمستقبل - فاقتضى الحال أن يكون خطابه عاماً وكليّاً، وبما هو أساسي ومقصدي، ومِن هنا جاءت كل سورةٍ مِن سُوَرِهِ تُبرز مقصداً رئيساً، وهدفاً كليّاً تدور حوله السورة، وتحوم عليه، إبرازاً له وتأكيداً عليه.

وقد تنبَّه العلماءُ إلى المنحى المقصدي في القرآن، فتحـدثوا عنـه إجمـالاً وتفصــيلاً، وأصــالةً وتبعــاً، إلى أنْ تشــكل لــديهم علم مهم، لــه ملامحــه ومعالمه، وهـو «عِلْم مقاصـد سُـوَر القـرآن»، ويُقصَـد منـه الوقـوف على المعاني والأغراض الأساسية والموضوعات الرئيسة التي تـدور عليهـا كـل ســورةٍ بعينهــا. وقــد يُعبِّر المفسِّــرون عن مصــطلح «مقاصــد الســور» بمصـطلحات أُخَـر، مثـل: مغـزى السـورة، أو غـرض السـورة، أو الوحـدة الموضوعية، أو نحو ذلك[1].

هذا؛ وتنبع أهمية هذا العلم من كونـه وسـيلة لتحقيـق المقصـد من إنـزال هذا القرآن كله؛ وهو تدبره والاهتداء بما تضمَّنه؛ وذلك لأنَّ التدبُّر لا يكـون إلا بعد فهم المعاني، ومقصد كل سورةٍ هو أصل معانيها الذي ترجـع إليـه. كما أنَّ الوقوف على مقاصد السور يُسدِّد الـذهن ويَعصِـم من الخطـأ في تفسيرها؛ لأنه يوجِّه فهم الآيات وفقـاً لهـذا المقصـد، فمقصـد كـل سـورة يُفهَم بعد استقراء آياتها والتأمـل العميـق في مـا تـدل عليـه معـان تحقِّق مراد الله تعالى من كلامه، وذلـك بـالنظر في فـواتح السـورة وخواتيمهـا، وسياق وسباق آياتها ولحاقها، وألفاظها.

ثم إن الاعتناء بـ«علم مقاصـد السـور القرآنيـة» يـؤدي حتمـاً إلى اليقين بعصمة القرآن، ورسوخ الإيمان بأنه كلام الله حقـاً، فتُشـرِق النفس وتقـرّ العين ويزداد نور القلب.

فـالقرآن الكـريم المكـوَّن من 114 سـورة، نلمس في كـل سـورةٍ مِن سُـوَرِهِ روحـاً تسـري في آياتهـا، وتسـيطر على مبادئهـا، وأحكامهـا، وتوجيهاتها، وأسلوبها. وتعرض موضوعاتها في سلكٍ واحدٍ كأنها حبَّات عقد مكتمل، أحكمته يد السميع العليم القائل: {الچـر كِتَـابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُـهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ 1} [هود: ١].

فمن وجوه الإعجاز القرآني: أن معانيه تجري في مناسبة الوضـع وإحكـام النظم مجرى ألفاظه، ولا يعدم المتدبِّر الـواعي وجهـاً صـحيحاً من القـول في ربط كل كلمةٍ بأختها، وكل آيةٍ بضريبتها، وكـل سـورةٍ بمـا إليهـا. وهـو علمٌ عجيب أكثرَ منه الإمـامُ فخـر الـدين الـرازي في تفسـيره، وقـال: إن أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط.

وعلى هذا: فإنَّ تفسير القرآن باعتبار «مقاصد السور»؛ يعتبر هـو المنهج الأسلم الذي يجعل كلام الله منتظماً على نحو يتضح فيه جلياً كمال نظمه واتساق آياته، ويبرز إعجازه وبلاغته. يقول البقاعي في كتابه «نظم الـدرر في تناسـب الآيـات والسـور»: «من حقّقَ المقصـود من السـورة عـرف تناسب آيها وقصصها وجميع أجزائها»[2].

وقد استدل العلماء المتتبِّعون لمنحى القرآن المقصدي بجملـة من الأدلة[3]:

أولاً: كون القرآن مقسَّماً على سُوَرٍ منفصلة، كل منها له مضـمون خـاص يختلف عن مضمون الأخرى، وذلـكَ مـع كونـه مُحكَمـاً في لفظـه ومعنـاه، فهذا فيه إشارة إلى أن لكل سورةٍ مقصداً اقتضى الإحكام تخصيصـها بـه. ويؤكـد ذلـك أنَّ اللـه لم يتحـدَّ الكـافرين بأقـل من سـورة؛ لأنهـا معجـزة بتمامها وكمالها.

ثانيـاً: افـتراق القـرآن المـدني عن المكي في القضـايا الـتي يعرضـها ويناقشها؛ من أعظم الدلائل على اعتبار المقاصد للسور القرآنية.

ثالثاً: كـون كـل سـورةٍ من سُـوَر القـرآن لهـا اسـم خـاص بهـا يشـير إلى المعاني التي تضمنتها، لاسيما أن أسماء السور القرآنية توقيفية، كما قرر العلماء والمفسرون العظام.

طرق الوقوف على مقاصد السور:

هناك طرق يمكن من خلالها إدراك مقاصد السور القرآنية؛ منهـا: أن ينص العلمـاء على أنَّ موضـوع هـذه السـورة كـذا، مثـال ذلـك: أن المقصـود الأعظم لسورة النحل هو تِعـداد النِّعَم، وأن سـورة العنكبـوت في الفتنـة، وأن سورة الكهف في الابتلاء، وأن سورة الإخلاص تُقـرِّر التوحيـد العِلْمي الخبري مِن خلال ذِكْر بعض صفات الله سـبحانه، بينمـا سـورة الكـافرون تُقرِّر التوحيد الطلبي الإرادي من خلال إفراد الله بالعبادة، وهكذا.

ومن طرق معرفة مقاصد السور أيضاً: أن يكون موضوع السـورة ظـاهراً من مطلعها وفواتحها، فيظهر للمفسِّر أن كـل السـورة مبـنيٌّ على أولهـا، وفواتحها مؤثرة في مقصودها؛ مثال ذلك: سـورة القيامـة، فـإن مطلعهـا: {لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ} [القيامة: ١]، ثم إن كل ما فيها هـو ذِكْـر لأحـوال يوم القيامة وما يسبقه من الموت، ووسائل الإيمان بيوم القيامة. وقد أكدَّ «ابن القيِّم» في كتابـه «بـدائع الفوائـد» على تـأثير مطـالع السـور - ولـوْ كانت حروفاً - على ما تتضمَّنه تلك السور من معانٍ.

ومن طُـرُق معرفـة مقاصـد السـور أيضـاً: اسـتقراء المُفسِّـر لآيـات كـل سورة، وذلك للوقـوف على الجـو الخـاص الـذي يُظلِّل موضـوعاتها كلهـا، ويجعل سياقها يتناول هذه الموضوعات.

هذا؛ وإن أول مَن أظهر هذا العِلْم الإمام أبو بكر النيسابوري، فكان يقول في تفسيره: «لِمَ جُعلتْ هذه الآية إلى جنب هذه، وما الحكمة في جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة»، وكان يُزري على علماء عصره؛ لأنَّهم لا يعلمون هذه المناسبات. وللإمام مجد الدين الفيروز آبادي الشيرازي كتاب قيِّم عنوانه: «بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز»، ويتميَّز هذا الكتاب بإيراد الأفكار والمبادئ والوصايا والأحكام التي تَشتمِل عليها كل سورة على حِدة. ومن عنوان الكتاب نلمح أنَّ المؤلف قد حرص على جمع اللطائف التي اشتمل عليها القرآن الكريم، وهو يبدأ بسورة البقرة، ثم بسورة آل عمران وهكذا، ويذكر تحت كل سورة تعريفاً بها والحكمة في تسميتها، ويُبيِّن المعاني والأفكار المشتملة عليها، والآيات المتشابهة فيها، التي تكررت في سورة أخرى، والروعة في تميِّز الآية في سياق سورة عنها في سياق سورةٍ أخرى.

وقد كتب الإمام الزركشي أبواباً في كتابه «البرهان» متعلِّقة بمقاصد السور والتناسب بينها، تعتبر على قِصَرها كالتأصيل لهذا العِلْم. وقد اعتنى الإمام السيوطي في كتابه «معترك الأقران في إعجاز القرآن» بذِكْر وجوه إعجاز العِلْم بالمقاصد وتناسب الآيات والسور. وللإمام برهان الدين بن عمر البقاعي تفسير بعنوان «نَظْم الدُّرَر في تناسُب الآيات والسور»، وهو تفسير جليل، جمع فيه من أسرار القرآن ما تتحيَّر فيه العقول، واهتمَّ ببيان ارتباط الجُمَل بعضها ببعض، وتناسق الآيات واتساق المعنى وترابطه. وللبقاعي أيضاً كتاب آخر بعنوان: «مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور». يقول فيه: «وقد ظهر لي باستعمالي لهذه القاعدة بعد وصولي إلى سورة سبأ في السنة العاشرة من ابتدائي في عمل هذا الكتاب؛ أن اسم كل سورة مترجم عن مقصودها، لأنَّ اسم كل شيء تظهر المناسبة بينه وبين مسمَّاه عنوانه الدال إجمالاً على تفصيل ما فيه». وفي مطلع القرن العشرين ظهر تفسير «المنار» للسيد رشيد رضا، وعُنيَ ببيان الوحدة الموضوعية للسورة، وبيان التناسب بين آياتها، وبيَّن أن الموضوع يجب أنْ يكون أساساً في فهم الآيات التي نزلت فيه. وكان رشيد رضا يُتْبِعُ تفسيرَ كلِّ سورة بملخَّص لأهمِّ موضوعاتها والأحكام التي وردت بها[4]. ولعلَّ الاهتمام الأبرز في هذا العلم كان من: الطاهر بن عاشور في تفسيره «التحرير والتنوير»، والدكتور محمد عبد الله دراز، والشيخ محمود شلتوت.

الوحدة الموضوعية لسور القرآن:

يقول الشيخ عبد الله دراز: مَن يُدرِكِ الوحدة الموضوعية لكل ســورةٍ من سور القرآن؛ يسهل عليه فهمها، وتدبُّر معانيها، والوصول إلى الهـدف من سـر تـرتيب الآيـات والموضـوعات الـواردة فيهـا، ومعرفـة المحـور الـذي تنطلق منه، فكل سورةٍ تختص برسالة محددة، ينبغي فهمها، حتى يتسنَّى تطـبيق المنهج القــرآني الكامــل الــذي جــاء تتويجــاً للرســالة الخاتمــة، والمقصــود في قولــه تعــالى: {الْيَــوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا} [المائدة: ٣].

فالسورة قِطعة من القــرآن وجـزء منـه، وهي سـور يحيـط بالآيـات الـتي تحتويها.

ولنأخذ مثالاً على الوحدة الموضوعية للسور من سورة آل عمران: يقــول الشيخ محمود شلتوت: يستطيع قارئ سورة آل عمـران أنْ يسـتبينَ على عجل موضوع هـذه السـورة الكريمـة، فهي تـدور على قضـيتين كبـيرتين، وخاتمة:

الأولى: حـوار مـع أهـل الكتـاب بشـأن معتقـداتهم وتصـوراتهم لمفـاهيم الألوهية والنبـوة: فالسـورة جـادلت النصـارى، وإبطـال معتقـداتهم، ونفيْ الشبهات التي تضمَّنتها معتقداتهم المنحرفة، أو التي تعمـدوا نشرهـا حـول قصة عيسى، وتنفي فكرة الولد والشـريك، وتسـتبعدهما اسـتبعاداً كـاملاً؛ وتُظهِر زيْف هذه الشبهة، وسَخَف تصوّرها؛ وتبسط السورةُ ميلاد السـيدة مريم وتاريخها، وميلاد عيسى وتاريخ بعثته، بطريقة لا تدع مجالاً لإثارة أية شبهة في بشريته الكاملة. فكان من مقاصد هذه السورة الأساسية: بيـان فيصل التفرقة بين عقيدة التوحيد الخالصة الناصعة، وبين عقائـد أصـحاب الديانات المنحرفة والمضللة.

الثانية: تعليق على هزيمة غزوة أحد التي أصابت المسـلمين بجـرحٍ غـائر: فقـد تحـدثت عن وقـائع الغـزوة، ومـا جـرى فيهـا من تمحيص للنفـوس، وفحص للقلوب، وتمييز للصـفوف؛ وذلـك بتميُّز المنـافقين من المؤمـنين، وتوضيح سمات النفاق وسمات الصدق، في القول والفعل، وفي الشـعور والسلوك، وتبيين تكاليف الإيمان، وتكاليف الدعوة إليـه، ومقتضـيات ذلـك كله من الاستعداد بالعلم والعمل، والتزام الطاعة والاتبـاع بعـد هـذا كلـه، والتوكل على الله، ورد الأمـر إلى اللـه وحـده في النصـر والهزيمـة، وفي الموت والحياة.

وما حدث في غزوة أحد يقرِّر سُنَّة بالغة الأهمية في حياة المسلم، وهي أن وقائع الحياة وأحداثها، سواء كانت نصراً وهزيمة، نجاحاً وفشلاً، تقدماً وتأخراً إنما تجري وِفْق سُنَن الله الجارية التي أقام على وفقها هذا الكون، إنها سُنَّة الأخذ بالأسباب الظاهرة، وهذا ما عبَّرتْ عنه الآية الكريمة، وهي قوله تعالى: {أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ} [آل عمران: 165]، فالأمور كلها منوطة بالعمل وفق سُنَن الله التي وضعها، فإذا أخذ بها المسلم نجح وتقدم، وإذا أعرض عنها أو تجاهلها خسر وتأخر، وما أصاب الإنسان من شر، إنما هو بما كسبت يداه.

وفي خضم حديث السورة عن هاتيْن القضيتيْن؛ دعتْ الآياتُ إلى الثبات الذي هو محور السورة، والذي ينبغي أن يتحلَّى به المؤمنون، وقد جاء الثبات على الحق في آيات كثيرة، منها: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ 102 وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا} [آل عمران: 102، 103]، {وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ} [آل عمران: 146]، {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ 173 فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ} [آل عمران: 173، 174]، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [آل عمران: 200].

وقد ختمت السورة ببيان أن هذا الكون كتاب مفتوح، يحمل بذاته دلائل الإيمان وآياته؛ ويوحي بأنَّ وراء هذه الحياة الدنيا حياة أخرى وحساباً وجزاء. يرشد لهذا المقصد ما جاء من آيات في أواخر هذه السورة، التي ابتدأت بقوله سبحانه: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ 190 الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} [آل عمران: 190، 191١٩١].

فقد جاءت هذه الآيات لتوجِّه القلوب والأنظار إلى هذا الكتاب المفتوح - كتاب الكون - الذي لا تفتأ صفحاته تُقلَّب على مر السنين والأيام، فتتبدَّى في كل صفحةٍ آية موحية، تستجيش في الفطرة السليمة إحساساً بالحق المستقر في صفحاته، وفي روعة صنع هذا النظام، ورغبة في الاستجابة

لخالق هذا الكون. ثمَّ أمرتْ بالجهاد والصبر الذي هو سبيل الفلاح في الدنيا والآخرة: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [آل عمران: 200].

---

[1] مناهج المفسرين، د. عبد الله شحاتة، مجلة رسالة الإسلام، القاهرة.

[2] نَظْم الدُّرَر في تناسُب الآيات والسور، برهان الدين بن عمر البقاعي، مكتبة الحلبي.

[3] شواطئ المرجان حول إعجاز القرآن، دار المعارف، القاهرة.

[4] مناهج المفسرين (مرجع سابق).